

اختطاف الأطفال بين الواقع الاجتماعي والواقع النفسي: لعبة الهوامات

أ. بوعلام فاطمة الزهراء

قسم علم النفس، جامعة محمد بوضياف، المسيلة.

- الملخص: إن اختطاف الأطفال واقعا أصبح يوهج الأضواء الإعلامية ويخطف قلوب العائلات الجزائرية من أن تفقد طفلها فجأة، في مجتمع لديه خبرة كافية من معاش فقدان بسبب الصدمات المتتالية التي عاشها المواطن الجزائري ولعل ذكرى 5 أكتوبر وانتفاضة الشباب الجزائري من أحد أحداث هذا المعاش رغم التصور البطولي الذي فقدت فيه بعض العائلات أولادها وأوصيوا بأذى، الواقع اقتصادي، مخلفات الإرهاب، واليوم معاش الحرمان في غلاف سياسي يخص "التشف" كلها تحيط بمفهوم يتعدى كونه "حدثا" مستقلا بذاته بل يشير إلى "أزمة" تمس استقلالية الفرد في وظيفية دوره داخل الجماعة (أب، أم، مسؤول عن أطفال...)، كما تحل بمفهوم الانتماء إلى نظام جماعي أصبح الآن مهددا.

الفقدان الدرامي للطفل لا يعتبر حقيقة اجتماعية تفرضها الظروف الملحقة به وحسب، أنه من أكثر الهوامات التي غزت الموروث الأدبي (أسطورة أوديب مثلا) لمخاطبة وحتى شفاء الذاكرة الفردية والجماعية التي ألمها الفقدان، الهجر وسوء المعاملة الوالدية. من خلال عرض حالة علاجية سنحاول تبيان صدى الواقع النفسي المشحون بهوامات متنوعة تنوع المشاعر المرتبطة بها، ضمن الظاهرة الاجتماعية المتلاعب بها اعلاميا كحاوي انفجاري لحياة نفسية مشوشة لدى الأولياء.

L'enlèvement des enfants entre la réalité sociale et psychique : Les enjeux des fantasmes.

Le résumé: L'enlèvement des enfants est une réalité qui occupe et arbore les médias et kidnappe les cœurs des familles Algériennes dans la peur d'une perte subite des enfants, dans une société qui ne manque guère de vécu de perte traumatique, les mémorisations de 5 octobre soulèvent l'exemple d'une histoire traumatique de notre jeunesse algérienne rebelle contre le pouvoir, en dépit de la représentation héroïque qui marque les pertes de ces jeunes et/ou leurs atteintes; la réalité économique, les séquelles du terrorismes, et aujourd'hui la privation dans une enveloppe politique nommée «abstinence», un tous qui entourent un concept qui ne peut s'inscrire comme un simple «fait» indépendant en lui-même, par contre il signe une «crise» qui touche l'individuation de la personne entravée dans son rôle inter groupal(père, mère, responsable d'enfants..),notamment le concept d'appartenance au système groupal devenu présentement menaçant.

La perte dramatique de l'enfant ne consiste pas uniquement à une réalité Sociale qui le Crée, mais elle s'enracine aussi dans les fantasmes, source d'un patrimoine littéraire riche (La légende d'Œdipe est un exemple) pour aborder et même guérir la mémoire individuelle et groupale tant souffert par les pertes, l'abandon et la maltraitance parentale. A travers une vignette clinique nous allons essayer de démontrer la résonance de la réalité psychique assez chargée de distincts fantasmes, tissés dans le phénomène social, dans des enjeux de la presse, comme un récipient détonateur d'une vie psychique parentale brouillée.

- مقدمة: إن اختطاف الأطفال واقعا أصبح يوهج الأضواء الإعلامية ويخطف قلوب العائلات الجزائرية من أن تنقد طفلها فجأة، في مجتمع لديه خبرة كافية من معاش فقدان بسبب الصدمات المتتالية التي عاشها المواطن الجزائري ولعل ذكرى 5 أكتوبر وانتفاضة الشباب الجزائري من أحد أحداث هذا المعاش رغم التصور البطولي الذي فقدت فيه بعض العائلات أولادها وأو أسيبوا بأذى، الواقع الاقتصادي، مخلفات الإرهاب، واليوم معاش الحرمان في غلاف سياسي يخص "التشفيق" كلها تحيط بمفهوم يتعدى كونه "حدثا" مستقلا بذاته بل يشير إلى "أزمة" تمس استقلالية الفرد في وظيفية دوره داخل الجماعة (أب، أم، مسؤول عن أطفال...)، كما تحل بمفهوم الانتماء إلى نظام جماعي أصبح الآن مهددا.

الفقدان الدرامي للطفل لا يعتبر حقيقة اجتماعية تفرضها الظروف الملحقه به وحسب، أنه من أكثر الهوامات التي غدت الموروث الأدبي (اسطورة أوديب مثلاً) مخاطبة وحتى شفاء الذاكرة الفردية والجماعية التي ألمها الفقدان، المهجر وسوء المعاملة الوالدية. من خلال عرض حالة علاجية سنحاول تبيان صدق الواقع النفسي المشحون بهوامات متنوعة تنوع المشاعر المرتبطة بها، ضمن الظاهرة الاجتماعية المتلاعب بها إعلاميا كحاوي انفجاري لحياة نفسية مشوشة لدى الأولياء.

- مفهوم الهوام: يعتبر مفهوم الهوام من المواضيع التي حظيت بدراسات تحليلية نفسية عديدة، منها على سبيل المثال دراسة اسحاق سوزان (Isaacs S.) التي عالجت طبيعة ووظيفة الهوام، وأهميته في الحياة العقلية. في مؤتمر نظمته الجمعية البلجيكية للتحليل النفسي تحت عنوان "الهوام والفعل" (1986)، حيث تدخل كلا من روجير بيرون وميشال بيرون حول: "أنه من نهايات الهوام اللاشعوري هو بالتأكيد تغذية وإثراء الحياة النفسية: يلعب الهوام دور الممون للأوهام والمشايخ والابداعات. فالهوام اللاشعوري هو الذي يعطي الحياة والحموى لكل النشاطات السامية، سواء للإبداعات في الحياة العادية أو للأعمال الأكثر اكتمالا" (مريجة ع، 2001، ص 42).

وهو خروج رمزي لا حقيقي، أي كما قال لابلاننش "إخراج مسرحي" من نقل وتكثيف وترميز فلا تنتبه إليها سلطة الأنا الأعلى بفعل هذا الكلام غير الواقعي، الذي تختفي وراءه النزوة وتتفادى التعارض مع الواقع. ويربطه آنزيو د. بالصراعات النفسية المثمرة التي تشق طريقها عبر الهوام. (Anzieu D. et Al. 1974, p.28)

- **الهوام، التصورات والنزوة:** تعتبر نوعية وكمية التصورات من ابعاد الجهاز النفسي والحياة العقلية للفرد، التصورات النهائية تعطي ما تسمى هوامات بينما التصورات الليلية تعطي عناصر الاحلام...الخ. هذه التصورات تسمح بتداعي الأفكار والتذكر الداخلي، كما أنها مستعملة دائما في حياتنا العلائقية المباشرة وغير المباشرة مع الآخرين (Marty p, mentalisation et psychosomatique,1991, p11)

حديث فرويد عن النزوة ارتبط بالحديث عن الجسد كمصدر لهذه النزوة، كما ارتبط أيضا بموضوع التصور لأن فرويد ميز في النزوة بين الوجدان والتصور حيث يعد تصور النزوة ممثلا لها؛ بحيث يعيد الفرد إنتاج إدراك سابق لموضوع معين يحقق من خلاله الإشباع بطريقة رمزية عن طريق الهوام أو عن طريق توظيف ميكانيزمات الدفاع النفسي. فعلى مستوى توظيف الهوامات يمكن للطفل أن يعوض غياب الموضوع الامومي باستحضاره ذهنيا؛ أي تصوره أما على مستوى ميكانيزمات الدفاع النفسي فيمكن للفرد أن يسقط تصوراته على مواضيع أخرى ذات صلة رمزية بالموضوع الأصلي، كما يمكنه أن يعكس الوجدانيات المرتبطة بالنزوة كما يحدث في ميكانيزمات التكوين العكس (Blanc, N. 2006. P25).

أو معالجة المشكلات من خلال ميكانيزم العقلنة بالجوء إلى ما هو منطقي ومحاولة استبعاد الأثر العاطفي للحقيقة أين يحاول الفرد: "اعطاء صياغة منطقية لصراعاته وافعالاته بهدف السيطرة عليها" (لابلاننش وبونتاليس، 1985، ص365)؛ ولكن هذه المعالجة قد تكون مسيرة بأقل تنظيم عقلائي مما يقرب مفهوم العقلنة إلى مفهوم التبرير: "فن الغايات الرئيسية للعقلنة ابعاد التأثيرات العاطفية وتحينها بينما يحتل التبرير في هذا الصدد موقعا مختلفا: فهو لا يتضمن تجنبا منتظما للمؤثرات العاطفية، اما يسبغ عليها دوافع هي أقرب إلى المعقول منها إلى الحقيقة، وذلك بإعطائها تسويغا عقلائيا أو مثاليا" (لابلاننش، وبونتاليس، 1985، ص366).

إذ يوضح بيرون العلاقة القائمة بين الهوام، التصور والنزوة في كون أن كلا من الهوام والتصور ينتسبان إلى نفس الأصول وهي النزوة، لكنها يختلفان في كون الهوام يولد قبل التصور لدى الفرد. فاذا كان الهوام يستمد عناصره ومادته من العلاقات مع العالم الخارجي، فإن الهوام هو عمل نفسي داخلي، ليس له مرجع في الواقع، ولتعليل هذا الاختلاف يجب العودة إلى مبدأ اللذة والواقع في السير النفسي، فالهوام يعمل حصريا لصالح مبدأ اللذة، أما التصور، رغم كونه ترجمة للهوام، لكنه يخضع لمبدأ الواقع (perron et perron,1997, P303)

- بعض الهوامات الشائعة:

- **هوامات التقمص الإسقاطي عند ميلاني كلاين:** وصفت ميلاني كلاين في كتابها "تحليل الأطفال" عام 1932 هوامات هجومية على داخل جسد الأم وفق اختراق سادي له، لكنها لم تقدم مصطلح التقمص الإسقاطي إلا في مرحلة متأخرة من عام 1946 للدلالة على شكل خاص من التقمص الذي يرسخ النموذج الأول للعلاقة العدوانية مع الموضوع، ويلخص التقمص الإسقاطي في شكل وضعية ذات صلة وثيقة مع الوضعية الشبه فصامية عن طريق إسقاط هوائي للجسم أو جزء منه داخل جسد الأم، وهذا الهوام يكون مصدر لأنواع كثيرة من القلق مثل قلق الاحتجاز أو فوبيا الأماكن المغلقة.

وترى كل من ميلاني كلاين وجوان ريفير أن هوام التقمص الإسقاطي يظهر كثيرا في فئات مرضية مثل الفوبيا. والأساس في التقمص الإسقاطي يكمن في أن الفرد ينقل الجوانب السيئة من ذاته ويسقطها على الموضوع مما يشكل لديه قلق كلما حضر الموضوع أو تم تخيله. واعتبرت كلاين نظرية الهوام مبدأ أساسيا للنمو الفكري، حيث أدجت الحلم في نظرية الهوام، والذي يشير وفقا لها إلى أحلام اليقظة الشعورية والخيالات (Bleandanu, 1995, p.59).

- **هوامات العجز الجنسي لدى الذكور والاعتصاب لدى الإناث:** ترتبط هذه الهوامات والفعل الاستمائي وما ينجم عنه من مشاعر ذنب كما تحركها الهوامات الاستمائية؛ إذ ترى ميلاني كلاين أن هذه الهوامات الاستمائية ذات طابع سادي وموجهة أصلا نحو الوالدين بسبب الاحباطات الأوديبية في المرحلة القضيبية، لكنها في المراهقة بالنسبة للفئة عملية خصاء حقيقية وعمق نهائي أما الذكر فجزء من القلق مرتبط وقلق الخصاء والجزء الآخر من القلق يمس كل الجسد (كلاين، 1994، 234-261).

هذه الهوامات قد ترافق الفرد إلى رشده في تناول مشوش للجنسية والعلاقة مع الآخر، فقد تتحول إلى عجز جنسي عند الذكور، أو الممارسات الجنسية الشاذة (الجنسية المثلية في دور الفاتر، الفيتيشية أو حتى التلبسية، البيدوفيليا...)، أما لدى الفتيات فقد تعيق المتعة الجنسية بالأخص في إطار الزواج، والخوف من الشريك، وفي حالات منطرفة تتحول إلى هذيانا الاعتصاب واتهامات تعسفية وتخريفية تجاه رجال غرباء وبالخصوص أقارب.

- **هوام الحمل الطفولي:** إذ يشترك كل من الذكور والإناث في تخيل إمكانية الحمل من الأم في المرحلة التي تسبق الأوديب كهديّة للأم التي نجحها وتنجب منها أطفالا ويتحول هذا الهوام بعد عملية كبت ناجحة إلى اعتناء أمومي بالآخرين وتعاطف مع الأطفال، وبفضل التسامي يصبح هوام الانجاب البيولوجي إنجابا رمزيا من خلال الابداع الفكري والفني (بوعلاقة، 2009، ص 51).

- **الهوامات المرضية والهوامات الإصلاحية:** إن الطفل يحتاج إلى "الهوام": تخيل ما يحدث ليلا في سرير الوالدين، وفضولية المشاهد البدائي، أن يجلم بأن لديه والدين أكثر قدرة وأكثر روعة من الوالدين المعروفين، يلعب دور الخائف باختراع قصص حول الهجر والموت. مزواجة العالم الواقعي بالعالم الخيالي وغرائبه، إعادة تشكيل الواقع حسب رغباته، المرور من الحب والكرهية تحت ستار الأحلام، دون مشاعر الذنب. وهنا يكمن دور الهوامات الإصلاحية (Delannoy C., 2000, p.115).

يقودنا هذا التفاوض بين الهوامات الإصلاحية و المرضية إلى تناول "الهوامات العابر للأجيال" كمحاولة لاشعورية وفق النماذج البدائية (Les arqué types) التي تكلم عنها "يونغ" لصنع "اللقاء الجيلي"، توضح في هذا النطاق Selma Fraiberg من خلال استعارتها المشهورة "أشباح في غرفة الوليد" الأسرار العائلية، الصور الوالدية الصراعية، الذكريات وعموما الروايات العائلية التي تنتقل عبر الذكريات الجماعية وتتجسد في التشوشات في دينامية الأزواج وأطفالهم. وترى أنه علينا في العلاج أن نكشف عن هذه الأشباح الخاصة بالأجداد ونفهم كيف للصراعات

1 النماذج البدئية ليونغ هي لغة رمزية ترتبط بمخزون تجارب البشر، وتستعمل صورا مؤثرة خاصة بأسلافنا (Aeppli. 1986. P 65)

الطفولية لوالدا الرضيع، كيف تعاد معايشتها معه. أي علينا فهم مطاردة هذه الأشباح للحياة اليومية والواقعية للوالدين وتشويها علاقتها مع ابنا (Lebovici S., cité par Manzano J., 1996, p.87).

قد تجد هذه الهوامات المتعلقة بالأجداد حلا في الجيل الذي تظهر فيه وتكون بذلك ذاكرة شافية حتى وإن كانت على شكل أعراض مثل الطفل- الدين الذي تساء معاملته لأنه مرفوض في "الذاكرة الجمعية" المثل الأسطوري الرمزي "أوديب" وآثار الاساءة الوالدية "التي حملها حتى في اسمه - سر تسميته بأوديب التي معناها باليونانية القديمة "المصنف بالأغلال أو الأرجل المتورمة"، وبالعكس الطفل الممثل والمثمن ولعل قصة سيدنا "موسى" من بين الأمثلة حيث تخلي عنه في اليم وفي الرعاية الإلهية لحب أمه فيه وحتى تحميه من فرعون.

- عرض الحالة: كلثوم قدمت من خلال توجيه الطبيب العقلي وهي تبلغ من العمر 27 سنة، بسبب أعراض جسمية (نزيف مجبلي حاد) وسلوكية (أرق، قلق، عدم تمكنها من البقاء وحيدة في المنزل أو لمدة مستمرة)، بقيت في العلاج لسن 39، انقطعت فيه الحالة عن العلاج لمدة تقارب سنة ثم عاودت العلاج بعدها بصفة مستمرة. من عائلة كبيرة العدد، الأب مغترب والأم لها طقوس خاصة: تخاف الخروج من المنزل، لا تقوم بالزيارات العائلية والمشاركة في احتفالية العائلة، ولا حضور مراسم الموت، والقانون ساري على الأبناء، شديدة التحفظ على اظهار عاطفتها لأبنائها ولا تذكر كلثوم أنها كانت تحضن من طرف أمها، رغم أن هذه الأخيرة عاشت حياة والدية دافئة وحماية زائدة من طرف عائلتها.

الأب لما يعود من فرنسا أثناء العطلة الصيفية السنوية، لا يسمح لهم بالخروج من المنزل للعب بالخصوص في القبلولة والسبب "شيخ القابلية" هذا التصور المخيف في بعد أبوي غير مجنس، يمنح للشخصية خوفا ومحابة أسطورية تشبه "العول" و "العولة"، هذه الشخصيات الشبه بشرية (Parahumaines) بقدر ما تزرع الخوف فهي تضع الحدود الفاصلة بين الخيال والواقع، بحيث تغذي الخيال وتبني الحدود الوالدية والاجتماعية في ضوء النسيج "خيال-واقع" من خلال هوام القدرة المطلقة للأنا الوالدي. هذا الهوام من خلال وظيفته الاصلاحية يفتح فضاء "الابداع" ويغذي بدوره أثير القصص، الرسوم، الأدب والمحاكاة؛ كما أنه بهذا الهوام المثالي تسمح بإزاحة العدوانية والكرهية اتجاه الوالدين الواقعيين وتلبسها هذه الشخصيات الأسطورية والخيالية، كما تلبس أضحية العيد عدائتنا الفطرية والبدائية وتعطشنا للدماء مما تفرزه هوامات الجرم والطوطمية. التهديدات اليومية التي تعيشها العائلات بوجود "سارق" عند كل عتبة باب المنزل، عند "الدورة" قلص وظيفة الخيال والبعد الهوامي، وطغى بهذا الواقع الخارجي الملموس على الحياة النفسية للأفراد. السارق هذه الشخصية الانسانية القريبة جدا من شخصية الوالدين الواقعيين، العائلة والمجتمع، تعزز لدى البعض تصور "العجز الوالدي" وتخدش لدى أطفال آخرين "مثالية الوالدين" غير القابلة للتبديل في ضوء استدخال واستثمار والدي مفرط ومثالي، ومن جهة أخرى عدم اللجوء إلى "بديل اجتماعي" محدد. وبالتالي التهديد يعاش كثير ملموس، يشترط الخوف والانسحاب والتوتر في توظيف عملي؛ ولعلي أفترض أن اشكالية الحراك المرور إلى الفعل الفوري كأحد الاضطرابات السائدة حاليا لدى طفل الكمون والمراهق لا تتعلق فقط بأزمات نمائية بل ترتبط بسجلات مسبقة لفشل الهوامات: في أن ترصن في تصورات ثانوية، رمزية حيث تربط بشكل كاف أو موفق بين عالم الرغبات والعالم الموضوعي.

- **الأعراض الجسمية والسلوكية المعاشة:** أعراض الأرق والخاوف الليلية وكذا الخوف من الصراخ المتواجد دائما داخل رأسها يندرج ضمن أعراض القلق التي تبرز أساسا في الطفولة ويقول فرويد: "الوضعيات الخفية الأولى التي نلاحظها لدى الطفل هي تلك المتعلقة بالظلام والوحدة؛ الأولى تستمر غالبا طول الحياة، وكلاهما يشتركان في غياب المحبوب، الراعي، أي الأم (...). الحزن الذي يعاش في الظلام يتحول إلى قلق اتجاه الظلام." (Freud S., 1916, 25^e leçon) بالنسبة لفرويد حول الفضيان الخيالي الذي يكون قريبا من الهذيان، والذي تناوله DSM-IV-TR بالنسبة للأطفال التي تعاني حصر الانفصال، يرتبط وثنائية الحضور- غياب للموضوع وتعتبر هذه الثنائية قلب التنظير الفرويدي واللاكاني للقلق؛ بالنسبة لفرويد هي تنبيه عن وضعية كدر، مرتبطة وغياب الموضوع الحامي. أما بالنسبة للاكان، فهي بالعكس حضور طاغي للموضوع.

نفترض أن هذا الصراخ هو وليد الفشل في تسير الثنائية حضور-غياب وإبقاء الموضوع حاضرا حتى في شكله المقلق. تذكرني أيضا بصرخة الميلاد والاستجابة الفيزيولوجية للانفصال عن الجسد الأمومي، أشير أن هذا الصراخ داخل الرأس زال ببداية العلاج وكان يعود في كل مرة كانت تحدث تغيرات في الحياة النمطية للحالة: زواج المعالجة مثلا، ولادة ابنها الذكر، زواج إخوتها ذكورا وإناثا...، ولكنه كان يظهر بأكثر حدة مرفقا بأعراض القلق لما تكون الحالة بمنزل أهلها، حيث كانت تعيد السبب إلى المرض العقلي لأخوها في شكل ما أفترضت تسميته "هوام الغلاف العائلي المريض" أين كانت تسقط في الأجساد العائلية الأم أنها-الجسمي هربا من مشاعر الذنب اتجاه أنا بدأ يقترب من التفرد ولو في نسخة شبيهة من خلال الزواج والأمومة. كما أنه يصد الثغرات الترجسية التي تميز الأنا الجلدي، هذا ما تؤكد أعراض الحكمة الجلدية والحساسية للبرد التي طالما عانت منهم كثوم، ترتبط وما أسمته Esther Bick "الأغلفة النفسية الأولى" التي تبني وفق التفاعلات المبكرة لموضوع حاضر حاليا والذي يعاش كأنا جواربي (Moi auxiliaire)، فالبدائيات الأولى للانا عبارة عن "غلاف" لا سيما كصورة الجسم، وفق التقمصات لصور التعلق؛ يسميه فرويد س. "الأنا الجسمي" (Freud S., 1923,p.254) ويسميه آنزيو "الانا- الجلدي" (Anzieu D.,1985).

كما كانت تعاني، و هو السبب الظاهري لطلبها للعلاج النفسي، نزيفا دمويا حادا يشبه دم الإجماض، مما يجلبنا إلى الهاشاشة على مستوى وظيفة الاحتواء للانا الجلدي المهدهد من نزوات الموت، في سياق عائلي "متداخل enchevêtré"، عيش فيه الزيف ليس كمرض بل كدم إجماض، واتهمت كلثوم بحمل غير شرعي تم اسقاطه، لم تصدق وتبرء الحالة إلا بعد علاجها في أحد المستشفيات الجزائرية أين شخصت حالتها كأحد الاضطرابات التناسلية، رغم براءتها أمام أفراد العائلة الا أنها بقيت تعيش "هوام حمل حقيقي تم إجماضه" وكان زواجها من الحلول العملية لتثبت أنها "امرأة بتول" من جمحة، ومن جمحة أخرى استثمار لرجل حقيقي ممثل الواقع الخارجي لتصب في قالب الحياة الاجتماعية- التقليدية مشاعر العار والذنب بسبب هذا الهوام الهستيرري المرضي الذي فشل الجسد في احتواءه.

- **الحضور المشوش كزوج وكأم:** ما عدا الأشهر الأولى من الزواج ومع حلول الأشهر الأخيرة من حملها الأول بدأت تعاني كلثوم أعراض القلق والأرق من جديد، وتجد في علاقتها الزوجية استغلالا لها من طرف زوج تسميه "هو"، أين كانت تتأرجح بين مشاعر تبخيس له كزوج غير مسؤول وكما كنت أضحك معها: "فيه الأخطاء السبع"، وبين

خوفها منه كذكر حسب وصفها له. تعززت هذه المخاوف وبرزت بعد حملها الثاني وانجابها ابنا ذكرا حيث تميزت أعراض كثوم بشعورها بالأم بأنها أم غير جيدة وغير كافية في استئثارها وكل المجهودات التي تقوم بها لتكون مع أولادها لاستيفاء هذا النقص الأمومي والذي يرى فيه غرين (Green A.) مؤشرا أم مكتنبة غير قادرة على الحضور النفسي مع ولدها (Manzano J., 1996, p.37).

الأسابيع الأولى والأشهر الأولى تعد الأكثر غموضا في النمو النفسي للفرد، ويتقاسم الباحثون فكرة أن التصورات الأولى للرضيع تعتبر غير متميزة، هذه المرحلة أخذت العديد من التسميات لدى المؤلفين النفسانيين: النرجسية الأولية لدى فرويد، مرحلة لا موضوع أو ما قبل الموضوع لدى سبيتر، ومرحلة التوحد الطبيعية لـ ماهر (Tyson et Tyson, 1990).، في هذه المرحلة أيضا الطفل حسب نظرية الارتباط بالموضوع تتعلق سلوكياته بالتعلق غير المتمايز اتجاه الصور البشرية القابلة لأن تمده بالرعاية والأمن (Cargiving) وبأن تصلح اتزانه (Guideney et Guideney, 2002, p.71-72).

التهديد الذي تعيشه الحالة في أمومتها وحتى تلك المخاوف التي تعترتها من ابنها الذكر بالخصوص (تحاف أن تتواجد معه لوحدها، تفزز لرائحته، سارعت في عودتها للعمل ووضعت عند المربية محاولة أن تقضي وقت أطول خارج المنزل...)، تعيد انماط التعلق البدائية للأم مع والدتها والتعلق غير الآمن معها، الاكتئاب الأمومي بعد ولادي الذي عانت منه كثوم يعد منطقتة مقبولة لمشاعر التخلص من موضوع الخوف الثانوي، وأشير أن أم العميلة كانت تعاني من اكتئاب بعد كل ولادة لا سيما الولادات الأثوية التي تشير أصلا إلى رفض للأثوية. يكتب في هذا الصدد Missonnier Sylvain عن الحضور المطلق عبر واقعية الحمل الذي قد يعاش كاضطهادي لدى بعض النسوة ذات الشخصيات الهشة وكذلك كـ "طفيلي" (Missonnier S., 2004, P.119).

- السير العلاجي:

- هوام التشرذ الطبي *fantasme de l'errance*: تكلمت ميلاني كلاين عن مشاعر الوحدة المرتبطة بمشاعر فقدان لموضوع جيد أصلي، كما ربطته بمشاعر التشرذ والهجر كوحدة خلقها الموضوع السيء المضطهد (Agoustini, 2005, p.74). هذا الأخير ما يفسر تكثيف الصور الطيبية المثالة للعناية الوالدية في طلب العميلة، إذ عاشت وما زالت تعيش كبت مصدر التوجيه للعلاج إن كان "الطبيب العقلي" أم "طبيبة الامراض التناسلية والتوليد" أم "الطبيبة العامة"، والتي تشير ضمنا إلى محاولة استبعاد الرجل كطرف طبي مع الإبقاء على الحيرة النفسية من خلال الدفاع الفكري "النسيان" عن "من يجب أن يراها؟"

- مرحلة التحويل المثالي المزيف وهوام القدرة المطلقة للمعالج: كان مكتب الجلسات مسرحا لعبت فيه العميلة دور العروس السعيدة والزوجة الراضية والمقبلة على مشاريع الأمومة، والرضا المهني، توقفت كل الأعراض التي بدأت العلاج من أجلها في لمسة سحرية من العلاج القصير والفعال. ووصفتني أثناءها بالمعالجة البارعة والمثالية، ضمن تحويل مثالي مزيف مصدره الدفاعات الهوسية تجنبا لمجاسة الذات الحقيقية وأعتقد أنني بدوري أعجبت بالدور البطولي الذي منحتني إياه الحالة ضمن التحويل المضاد. وتوقف العلاج في غضون ثلاث أشهر ما يبرز عن كذب طبيعة التحويل- الشبه من خلال الابتعاد عن صورة المعالجة التي لا تمتلك للصور الوالدية المرجوة لقاءها عبر العلاج، ولما كنت

أعكسه كتمودج نرجسي لا يشبع رغبات التبعية للصور الوالدية، ومن جهة أخرى أضيف رقماً آخر للغلاف العائلي لبنات المنزل العازبات. كان سردها دائماً يبين جماليات الزواج في سياق "كل شيء على ما يرام" كإنكار عصبي لسياق "لا شيء على ما يرام".²

- **مرحلة اللقاء عبر الهوية وهوامات الشبه:** عندما أرادت معاودة العلاج كنت قد تزوجت وسأصبح أما، وأشير أنه قبل زواجي كانت تدعو لي بالزواج حتى أنها قامت بصيام يوم قربان لله حتى يتقبل دعوتها، لكن لما تقبلت دعوتها وتزوجت بكتني كوضوع سيغيب عنها ويتركها، وعاشته كإنفصال يعزز قلق الهجر لديا.

إذ يرى Bion أنه على الطفل أن يكتفي من الأم حتى يستطيع هجرها، عدم القدرة على هذا يجس الطفل في مشاعر الحنين، أين نجد مفهوم الوحدة الأساسية التي تكلمت عنها ميلاني كلاين ونقص الوظيفة الحاوية المتعلقة بمقاومة الهوامات العدائية وذلك بسبب عدم ارضان الوضعية الاكثنائية (Dupont S.,2010, p.212)؛ وفي هذه المرحلة بالذات تجسدت هذه الهوامات العدائية اتجاهاً، ورغم أنها هي من طلبت إيقاف العلاج في المرحلة الأولى إلا أنني من كنت المتهمة بالتخلي حيث سقطت "مثالية المعالج" الكنفؤ الذي لا يعرف اتخاذ القرارات الصائبة وحتى تحقق عبر هذه الصورة هوام "الأم السيئة"؛ وهذا ما أعد إلى وضعية علاجية ظهرت فيها أكثر امكانية الاستثمار العائلي والتفاعلية، هذا العمل النفسي - العلاجي الذي دعمته سياقات التمسك وهوامات الشبه، التي تناولها لآكان حيث يرى أن هذه الهوامات تعزز الحضور الخيالي للآخر أين يعيش الفرد لاشعوريا وشعوريا علاقته مع مواضع الرغبة. (Dupont S.,2010, p.135).

- هوامات الاختطاف والسرقة وتقنية اللجوء إلى الواقع الموضوعي:

- **النسيج هوام- واقع في السجلات الدفاعية للعميلة:** رغم ان كلثوم لم تتعرض في قصتها الفردية والعائلية إلى أي عملية اختطاف أو سرقة أو أي اعتداء خارجي إلا أنها دائمة الحديث عن فعل السرقة كخوف مجهول تتداوله الصحف الجزائرية وحاضر بقوة في التوجيهات والنصح المجاني والكرام من نسوة أهلها وجاراتها: "كيفاش تقدري تخلي ولادك برة يلعبوا ما تخافيش عليهم كشما يسرقوهم ولا كشما يديروا فيهم"؛ هذا التوجيه في صورته التطفلية كان يعزز لهوام العجز الأمومي في وظيفة الحماية التي تكلم عنها فيشر في تفسيره لسلوك التعلق الذي يتكون من خلال التزاوج بين عنصرين هما: الإعتناءات الجسمية، والأمن العاطفي (Fischer, 1996, p.34) ، والذي بدوره يعمق وظيفة المجتمع وسرورة الاستقلالية والتفرد في امكانية أن نكون- مع التي طورها وبيكوت والتي تفترض إدماج الطرف الثالث. يرى كلا من "Lebovici و Diatkine أن الوجود الفكري للطرف الثالث يبدأ في المرحلة الأولى مع قلق الشهر الثامن والخوف من وجه الغريب، إدراك لوجه ليس بوجه الأم قبل أن يدرك على أنه وجه الأب أو بديله. هذا ما أساه التعرف الأوديبى oedipification الذي من خلاله تسقط "الرغبة في الأم" - في الشكل القبل جنسي لها الذي يملكه الطفل- على الأب الذي يدرك بأنه مختلف عن الأم في مظهره ووظيفته (Lebovici et all, tome4, p.2606).

2 بيرون روحيه حاول تفسير بعض السياقات الدفاعية المرتبطة بالوظيفة المعرفية وبناء المعاني، ويعتبر الكبت والنفي والإنكار ثلاث عمليات تعمل على التجاهل.

ضرورة استدخال الطرف الثالث تجسدها هوامات السرقة والاختطاف كهوامات فاصلة بين حدود الذات وحدود الموضوع الأمومي ولو في شخصية "سينة" امتدادا للرواية العائلية الطفولية أين ينتقم الأطفال من الوالدين المحبطين بتهديد الهروب من المنزل والبقاء في الشارع وحتى اللجوء إلى هذا السارق الذي يسكن المنازل والأحياء في خطاب الوالدين، هذا التفسير يحملني إلى انتقاداتها السلبية المتكررة لذاتها كذات لا تستحق إلا السوء بسبب غياب الآخر كناق للحب، نقص تقدير الذات، مشاعر أنها غير محبوبة مرتبط ورجسيتها الثانوية كأحد أبعاد النقص في الوظيفة الاحتواء للإنتاج النفسي المثبتة أساسا في القدرة على حلمية الطفل من طرف الأم، التي بلغها Bion. والنقص في الامتداد في فكر الآخر (DUPONT S.,2010,p.132)

هذا اللجوء إلى الهوامات المهدة يشير إلى عوز للتفاعلات المباشرة بين الأب وطفله الصغير، والتي بفضلها تتكون تلك الهوية الأبوية التي تتدخل فيها الخلفيات العلائقية للأب في حد ذاته مع والديه. فمجرد ولادة ذرية، له تأثير المرآة العاكسة لعلاقته السابقة مع والديه، وبالتالي لكل الصراعات القديمة، وتوارث لما يعرف بـ "الاشعور الأبوي". بيرون ر. حلل اشكالية العلاقة وعرفها بمفهوم الربط، ويعتبر سياقات الربط محممة للروابط النفسية الباطنية إذ أكد على أهمية تفتح البنية النفسية التي تقود إلى التحرر على عكس البنية النفسية المغلقة التي تحد من حرية الشخص (Perron R., 1994, pp. 217-233).

فالوظيفة الأبوية ضرورية لتكوين النفس والاتجاه العقلي النشط لانا أمام المسرح البدائي، إذ يرى آنزيو د. أن الحنان والحب الأمومي المنبه يهيئ الطفل لحب المعرفة والابداع، ولكي يحدث اقلاع (le décollage) توجد وجود سند من النمط الأبوي (مريجة ع.، 2001، ص.34).

- اللجوء إلى الواقع الموضوعي كتنقية علاجية:

- التعرض للسرقة فعلا: أثناء العلاج وأضنه من بركانه تعرضت العميلة لسرقة طال منزلها وفقدت عقدا ذهبيا تقليديا كان ملكا لأحما، رغم عودة الصراخ والأرق إلا أن الأعراض حسبا لا تحمل نفس الثقل، هل لأن الهوام تحول إلى حقيقة؟، أم لأن أحد أصفاد الأم قد ضاعت والمتهم سارق بشحمه ولحمه؟ هذه السرقة حملت الحالة على التعامل مع هواماتها بمرونة أكثر حتى أنها أصبحت تستفهم وتضع الاحتمالات كمؤشر فضول داخلي مسموح به والخوض في عمل نفسي في حضور الآخر.

- الحمل الثالث كحمل هوائي وواقعي: حملها الثالث بفتاة كان وفق نسيج موفق بين الهوام-الخيال-الواقع، إذ أنه الحمل الوحيد الذي استشعرت وجوده وعاشت مخاوف التشوه الجنيني كأحد مخلفات الذنب الأوديبيية، ولكنها أيضا من الموجات العقلية عبر التصور للعدوانية اتجاه الجنين- الأثنى الذي أحييا كل التنافسية مع الأم والأخوات، ضمن تفاعلية عواطف الأم مع هواماتها. في هذا الصدد يشير لبيوفيسي أن المفارقة المتكاملة بين: الطفل التخيلي وهو الذي ينشأ مع رغبتها في الحمل، ينشأ في الثلاثي الأول من فترة الحمل. فالمرأة الشابة تتخيل الطفل الذي تقدمه لشريكها، فهي تنتمي جنس ما، وتخشى أن يكون مشوه، وفي أيامنا الحالية تراه بالصور الإشعاعية وتعرف جنسه (..) الطفل الهوائي هو ذلك المرتبط بالرغبة في الأمومة والرغبة في الطفل، وهو يرجع إلى ماضي بعيد إلى تلك الصراعات الطفولية التي

أصبحت الآن لاشعورية. لأن الطفل المولود غالباً ما يكون دعم للهوامات المرتبطة بالأجداد الأموميين، فهو يحمل مصير وحقيقة متوارثة (Lebovici et al.,1985, p.33).

ضمن الفيضانات الهوامية للعميلة كأم عاجزة على رعاية اولادها كنا نلجأ إلى يوميات الحالة في تعاملها مع اولادها، مع حملها، يوميات المطبخ، غرفة الأولاد، الحضنة والمدرسة، الشجارات المتكررة مع زوجها واستدخال هذه العناصر ضمن المعاش اليومي والمألوف لكل الامهات مع التفاوض مع الذكريات الطفولية. وعبر هذا العمل النسيجي ظهر من جديد هوام السرقة ويخص تعرض ولديها إلى الاختطاف وهما في كامل الرعاية من طرف جديهما أي عائلة الحالة، هذا الهوام هو وليد التيمن بالأمومة والخوف من أن يسرق الوالدين أمومتها وفي الحقيقة هو خوف يخفي مشاعر الغيرة اتجاه الرعاية الوالدية التي يحظى بها اولادها بكل سهولة ووضوح. ولكنه أيضا حماية مفرطة عبر الهوام الذي يضمن بقاء الرغبة في اختفاء اولادها محنطة، فهم اولاد البيولوجيا الجنسية، والرابط النفسي ما زال يبني.

- **خاتمة:** يقول فرويد أن كل انسان يخلق لنفسه هوامات يعيش بها، شعورية كانت أو لاشعورية، إذ أنها تندرج ضمن أصول الحياة النفسية المتفاعلة أساس مع الوجود الاجتماعي، تتداخل فيما بينها وفق سير نفسي يخضع للثنائية مبدأ اللذة- مبدأ الواقع، فقد تحرك المخاوف والرغبات الداخلية عمل الهوامات لتسقط نحو العالم الخارجي في مواضيع تتطابق و/أو تشبع الشعور بالخطر والتبديد كما قد يعمل الواقع الموضوعي المتمثل في الحقائق والأحداث المعاشة في إحياء وتنشيط هوامات كانت كامنة محدثة عند بعض الأفراد خلافاً في توظيفهم النفسي، ولعل واقع اختطاف الأطفال من بين هذه المعاشات الاجتماعية التي خطف الفرحه من قلوب الأولياء في أن يشاركوا اطفالهم حرية اللعب والانفتاح على عالم الآخرين ما ساهم في خلق نمط تربوي ومجتمعي يميزها الانغلاق والحذر الدائم. اللعب المراقب، العلاقات الحذرة والخوف من الآخر أضافت لدى الامهات والآباء اللذين يعانون من سير نفسي مختل أو هش، مبرراً لانسحابهم العلائقي وموضوعاً حتى شائعاً ومتفقاً عليه للابتعاد عن تناول اشكالياتهم الخاصة والعزوف عن التفكير والتبصر في ذواتهم. لم أسجل في طلبات العلاج المتنوعة أي طلب مباشر يخص موضوع اختطاف الأطفال ولكن الخوف منه كحدث ممكن متكرر لدى الكثير من الحالات، وكان العمل على هذه الأفكار الخوفية جسراً واصلاً إلى ما وراء الأفكار والتي تلعب فيها الهوامات دوراً أساسياً. ويعد هوام الاختطاف ووسواس التعرض للسرقة الذي شهدناه مع حالة كلثوم تصور ازاحي لتقمصات اسقاطية اتجاه الموضوع الأساسي " الأم " حيث تلعب هذه الهوامات دوراً عدائياً تجاه الأم التي بدل أن تمنحها الامتداد الأمومي من خلال "النسل" تمنحها الحرمان عبر تصورات فقدان، والمطالبة بحب الأب واهتمامه في سياق انشغال قلق بسلامة الأحفاد.

- قائمة المراجع:

- 1- بوعلاقة فاطمة الزهراء، (2009): نوعية التقمصات لدى الفنانين التشكيليين عبر المنتج الاسقاطي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر2.
- 2- كلاين م. (1994): التحليل النفسي للأطفال، ترجمة: الديدي عبد الغني، لبنان: دار الفكر اللبناني.
- 3- لابلاش ج. وبونتاليس ج. ب. (1987): معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة: مصطفى حجازي، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

- 4- مريجة ع. (2001): الابداع في وضعية الاختبارات الاسقاطية دراسة عيادية ومقارنة لمستويات الإبداع عند الطفل، رسالة ماجستير، الجزائر 2.
- 5-Aeppli E. (1986): Les rêves et leurs interprétations. France. Ed Payot
- 6-Agoustini D. (2005): «Les concepts de "capacité d'être seul" (D.W. Winnicott) et de "se sentir seul" (M. Klein) »,Adolescence (Paris),51:67-78.
- 7-Anzieu D. et Al. (1974): Psychanalyse du génie créateur, Paris, Dunod.
- 8-Blanc N. (2005): le concept de représentation en psychologie, Paris, Presse édition.
- 9-Bléandanu G. (1995): L'analyse des rêves et le regard mental, Liège, éd Pierre Mardaga.
- 10-Delannoy C. (2000): Au risque de l'adoption : une vie à construire ensemble, Paris, La découverte.
- 11-Dupont S. (2010): Seul parmi les autres « le sentiment de solitude chez l'enfant et l'adolescent, Toulouse, érès.
- 12-Freud S. (1916): Leçon d'introduction de psychanalyse, Paris, Petite Bibliothèque Payot, 1951.
- 13-Freud S. (1923) : « Le moi et le ça », dans essai de psychanalyse, Paris, Payot et Rivages,2001.
- 14-Guideney N., Guideney A. (2002): L'attachement. Concepts et applications, 2e éd., Paris, Masson, 2006.
- 15-Lebovici S., Diatkine R., Soulé M. (1985): Nouveau traité de Psychiatrie de l'enfant et de l'adolescent, Paris, PUF, tome 1.
- 16-Lebovici S., Diatkine R., Soulé M. (1985): Nouveau traité de Psychiatrie de l'enfant et de l'adolescent, Paris, PUF, tome 4.
- 17-Marty p. (1991): mentalisation et psychosomatique, Paris.
- 18-Manzano J. (1996): Les relations précoces parents- Enfants et leurs troubles, Genève, édition Médecine et Hygiène.
- 19-Missonnier S. (2004): «L'enfant du dedans et la relation d'objet virtuel», dans S. Missonier, B. Golse, M. Soulé(sous la direction de), la grossesse, l'enfant virtuel et la parentalité, Paris, PUF.

20-Perron R. (1994): «La liaison: la meilleure et le pire des choses» ,in revue de la psychologie Algerienne,n-4.

21-Perron R., Perron B. (1997): Fantasme-action-pensée aux origines de la vie psychique, Alger, Semailles -SARP.